مؤرخ الشام

أو

البرزالي ومؤرخه

وما هذه الأيام إلا صحائف نؤرخ فيها ثم تمحى وتمحق
ولم أر في دهري كدائرة المنى توسعها الآمال والعمر ضيق

نعم ان العمر ضيق ، والتجربة مرّة ، والسعيد من وعظ بغيره ، فلا مندوحة لنا من أن نلحظ ما جرى من الحوادث بأمل الاطمئنان والتثبت من صحة العمل وصوابه ودرجة علاقتنا به ، فكان ما نهجته الأمم ، أو سلكه الأفراد في هذه الحياة محل الاهتمام ، ودأب الحكماء ، وطريق العقلاء .

والتاريخ قام بالمهمة ، وأدّى الغرض . ولا يعنينا التحامل عليه ، او التنديد به ، أو ان يخصّ تاريخنا وحده في هذا مهما كانت الغاية ، أو كان الباعث ، فلا تخفى الحاجة اليه . وان المخلصين من رجالنا قدموا آثاراً تفوق الوصف في صدق الخبر ، ودقة النظر ، فخلدوا ما كان متعة العصور ، وتحفة الدهور ، فتكاملت الصنعة ، لا تعروها شائبة ، ولا يغشاها لبس . ولم تكن المساعي التاريخية مقصورة على قطر بعينه ، أو شعب بخصوصه وانما شملت حوادث أمم وممالك عديدة ، فكانت من أعظم المراجع لتواريخ الأقوام والأقطار ...

والشام قطع شوطاً في هذا المضمار ، واكتسب مكاناً علياً ، وزاد في الفخر فكان من نوابغه مؤرخون أكابر اشتهروا وذاع صيتهم في الأقطار ، منهم (أبوشامة) ، و (القطب اليونيني) ، و (ابن واصل) ، و (الذهبي) ، و (الصفدي) ، وآخرون يعدّون زينة العصور .

ومترجمنا احد هؤلاء النوابغ ، وهو — كما نعته معاصروه — الامام الشيخ الأوحد الكامل الحافظ مؤرخ الشام عمدة المحدثين مفيد الآفاق أبو محمد القاسم

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ابن البهاء محمد بن يوسف ابن الحافظ زكي الدين أبي عبد الله محمد بن يوسف ابن أبي بدّاس البرزالي الاشبيلي الشامي . ونعته الذهبي بـ (مؤرخ العصر) .

١ — حياته

كان — رحمه الله — من أسرة علمية جاءت من المغرب ، وكانت قد حلّت اشبيلية ، ثم رحلت الى الشام . انتسبت الى قبيلة [برْزالة] بكسر الباء بطن من البربر [١] .

وأول من عرف من هذا البيت في الشام الجدّ الأعلى للمترجم وهو الامام المفيد الرحال محدّث الشام زكي الدين ، تجوّل في بلاد كثيرة للأخذ من علمائها في بغداد واربل والموصل ... حج سنة ٦٠٢ هـ وعمل المعجم الكبير . وتوفي في رمضان سنة ٦٣١ هـ بحماة [٢] . ودام العلم في هذا البيت . وفي بغداد [بيت آخر] عرف بهذه النسبة ومن رجاله أبو الفضل محمد بن محمود . وكان إماماً مفتناً صالحاً ، واشتهر ابنه شمس الدين إبو عبد الله محمد البرزالي [٣] ، وجاءت ترجمته في الوافي بالوفيات ، وفي شذرات الذهب وتوفي سنة ٧٣٤ هـ أو سنة ٧٣٥ هـ . وفي المغرب أيضاً علماء عرفوا بالنسبة الى برزالة .

غطت شهرة مترجمنا على من سبقه من علماء أفاضل من هذا البيت ، أو من تلك القبيلة وذاع صيته في حياته ، وانتشر ذكره في الشرق والغرب . ولا يزال الى أيامنا يردّد ذكره في دائره المعارف الاسلامية ، وفي آداب اللغة العربية لبروكلمن ، ولآخرين وعرف بالحديث وزاد تفوقه فيه كما لهج القوم بصلاحه وتقواه وصدق لهجته مما جعل لتاريخه قبولاً تاماً في الأوساط العلمية لأنه مستجمع الشروط للمؤرخ الصادق بحيث أكبر معاصروه عمله ، واقتبسوا من تاريخه في حياته ، ولخصه آخرون بعد مماته ، ونقلوا عنه ، ولا يزال معيناً فياضاً في الإتقان والكمال ، وقدوة في الأخذ .

(١) تذكرة الحفاظ الذهبي ج ٢ ص ٢٠٨ وتاج العروس . (٢) تذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٢٠٨ (٣) الوافي بالوفيات ج ١ ص ٢٣٧ والشذرات ج ٦ ص ١١١ وهو الذي خرّج [كتاب سلوك طريق السلف] في مشايخ الشيخ المعمر أبي محمد عبد الحق بن خلف ابن عبد الحق الحنبلي سنة ٦٣٦ هـ وهو في مجموع ١٧ من الخزانة الظاهرية بدمشق .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

ولد في جمادى الأولى سنة ٦٦٥ هـ — ١٢٦٧ م وأول ما عرفنا من حياته العلمية أنه كان قد أجازه بإجازة علمية مؤرخ العراق ظهير الدين الكازروني البغدادي المتوفى سنة ٦٩٧ هـ - ١٢٩٧ م . وكانت هذه الاجازة باذن من الشيخ الإمام الحافظ عضد الدين أبي محمد عبد الرحيم بن محمد بن أحمد [ابن الزجاج] البغدادي في شوال سنة ٦٨٤ هـ — ١٢٨٥ م [١] . وكان المترجم آنئذ في مقتبل العمر ، لم يتجاوز التاسعة عشرة . وهذا الحادث مهمّ في تفسير حياته ونشاطه العلمي ونبوغه كما يدل على التنظيم العلمي وحسن الاتجاه آنئذ . ولعل الاتصال بأمثال الكازروني مما حبب اليه [التاريخ] ، ومما زاد في ذلك مطالعته تاريخ أبي شامة . ومن شيوخه ابن عبد الدائم ، وابن علان وآخرون ... أمعن في الطلب ، ورحل الى البلدان ، فأخذ عن حفاظ أكابر أودعهم معجم شيوخه وأورد الحسيني في ذيل تذكرة الحفاظ جماعة منهم [٢] .

وأقدم من ذكره ابن الفوطي في [تلخيص مجمع الآداب] قبل ان يظهر أثره التاريخي للوجود ، أو قبل ان يقف عليه . قال :

« ... ابن البرزالي نزيل دمشق المحدث ... وأنشد له :

يتعاطى كل شيء وهو لا يحسن شيئا
فهو لا يزداد رشداً انما يزداد غيّا [٣]

ونعته ابن كثير بـ[مؤرخ الشام] وقال :

« ... كتب تاريخاً ذيل به على الشيخ شهاب الدين من تاريخ وفاته ومولد البرزالي الى أن توفي ... وسمع الكثير من أزيد من ألف شيخ ، وخرّج له المحدث شمس الدين بن سعد [٤] مشيخة كبيرة فلم يتمها .

(١) مجموعة الحديث في الخزانة الظاهرية رقم ١٢١ وجاءت ترجمة ابن الزجاج في طبقات الحنابلة لابن رجب وتوفي في ١٢ المحرم سنة ٦٨٥ هـ إلا انه ذكره باسم عبد الرحمن وتابعه ابن حجر في سهوه كما في الدرر الكامنة ج ١ ص ٥١ وصواب اسمه كما هنا وفي منتخب المختار في علماء بغداد ص ٩١ ترجمته وكذا في العبر للذهبي وفي الشذرات (٢) ذيل تذكرة الحفاظ للحسيني ص ١٨ (٣) عن مخطوطة الظاهرية ص ٦٨ - ٦٩ المصورة في خزانة المعارف ببغداد.

(٤) هو شمس الدين محمد بن يحيى بن سعد المتوفى سنة ٧٥٩ هـ . وجاءت ترجمته في الدرر الكامنة ج ٤ ص ٢٨٣ وفي الشذرات في حوادث هذه السنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وقرأ شيئاً كثيراً ، وكان له خط حسن ، وخلق حسن . وهو مشكور عند القضاة . ومشايخه أهل العلم ... وأصحابه من اهل الطوائف يحبونه ويكرمونه . وكان شيخ حديث بالنورية ، وفيها وقف كتبه بدار الحديث السنية ، وبدار الحديث القوصية . وكان متواضعاً محبباً الى الناس ، متوداً اليهم ... »[1] اهـ

وعن شيخ الاسلام ابن تيمية : « نقد البرزالي نقر في حجر » وفي رواية [نقل البرزالي نقر في حجر او نقش في حجر] . وبأن الذهبي انه كان رأساً في صدق اللهجة والأمانة ، صاحب سنّة واتباع ولزوم للفرائض . قال : « وهو الذي حبب اليّ طلب الحديث » .

ويصحّ ان يقال ان ولعه بالتاريخ جاء من طريق البرزالي أيضاً . إذ نعته بـ [مؤرخ العصر] .

وعصره من أجل العصور التالية للعصور العباسية ومن معاصريه ابن تيمية وابن الزملكاني . وترجمته في مراجع عديدة[2] وكل ما نقوله ان حياته العلمية دامت من سنة ٦٨٤ هـ الى سنة ٧٣٩ هـ لمدة ٥٥ سنة ، فأجمع العلماء على الثناء عليه وعلى جميل سجاياه ، وعلو أخلاقه .

وما جاء في دائرة المعارف الاسلامية من انه ولد في اشبيلية ، ورحل الى الشرق ، وان من أهم مصنفاته تاريخ مصر ودمشق ، وأن أبا شامة وضع تاريخه الى سنة ٧٢٨ هـ ، وأتمه تلميذه ابن الرافعي ، وكتب تاريخاً موجزاً للسنوات ٦٠١ هـ — ٧٣٦ هـ ومختصر المائة السابعة ... كل هذا غير صواب ، فان أسرته سكنت الشام من أيام جدّه الأعلى ، وانّ تاريخ مصر ودمشق لشمس الدين ابن الجزري لا للبرزالي وان ابا شامة وضع تاريخه الى سنة ٦٦٥ هـ وان ابن الرافعي صوابه ابن رافع السلامي ، وان التاريخ الموجز ومختصر المائة السابعة لم يكونا للبرزالي على ماسيجيء . وكما أوضحت ذلك كله في مجلة [العالم الاسلامي] البغدادية[3] .

(١) تاريخ ابن كثير ج ١٤ ص ١٨٦ . (٢) البدر الطالع ج ٢ ص ٥١ ، وتذكرة الحفاظ ج ٢ ص ٢٨٣ وذيولها ص ١٨ و ٣٥٣ والدرر الكامنة ج ٣ ص ٢٣٧ ، وطبقات السبكي ج ٦ ص ٢٤٦ . (٣) العالم الاسلامي ج ١ ص ٢٠٥ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net

٢ — **تاريخه** : للمترجم مصنفات عديدة من أشهرها تاريخه جعله ذيلاً على تاريخ أبي شامة [ذيل الروضتين] ، وأما تاريخ البرزالي فقد سمي بـ [المقتفي لتاريخ أبي شامة] واشتهر بـ [تاريخ البرزالي] . وهو معوّل مؤرخين عديدين . ونسخته الوحيدة في [سراي طوپقپو] في خزانة السلطان أحمد الثالث ورقمها ٢٩٥١ ، أولها :

« الحمد لله مبدي العالم ومبيده ، وناشره من الأجداث ومعيده الخ . » اهـ

ويوضح اشتغاله في التاريخ ما جاء في مقدمة تاريخه قال :

« ان علم التاريخ من أحسن العلوم وأشهاها ، واجلّ الفوائد وابهاها ، واكمل المحاضرات وازهاها . لأنه سبيل الى الاعتبار ، ومنهاج يعين على الاستبصار ، وتحفة تريك من مضى من الأمم عياناً ، ونزهة تشرح للمطالع فيه قلباً ، وتبسط له لساناً . وكان تاريخ الشيخ ... المعروف بأبي شامة ... انتهى فيه الى سنة ٦٦٥ هـ ، وهي سنة مولدي مجموعاً حسناً ، وذيلا ... حسناً . ولما طالعته ، وحصلت به نسخة ، وقابلته احببت ان أذيل عليه من تلك السنة ، وان احذو حذوه فيما أتقنه وبينه ، وان اهتدي بأنواره ، وان اعدّ من اعوانه وانصاره ليكون تاريخه معلماً ، واتقانه محكماً . والمسئول من لطف الله تعالى الاعانة ، ومن جميل كرمه الإبانة ... » اهـ .

ومن هنا نشأت حياته التاريخية في هذا الأثر الجليل . وتعين فيه نهجه في التاريخ ، وعرفت درجة الاهتمام به . وكانت الصلة السياسية والعلمية مكينة بين مصر والشام لا تخفى على متطلعها ، وكذا في سائر الممالك والأقطار العربية والاسلامية فلم تكن مجهولة لمن اراد التطلع اليها والتأهب لاستجلاء الأخبار من من معادنها ، فكتب ما كتب في التاريخ بدأ من حيث انتهى سابقه .

وتاريخه هذا يبتدئ الجلد الأول منه بحوادث سنة ٦٦٥ هـ ، وينتهي بسنة ٦٩٨ هـ في مجلد ضخم ، والجلد الثاني منه يبتدئ بسنة ٦٩٩ هـ ، وينتهي بسنة ٧٢٠ هـ ، ويتم بحوادث تلك السنة .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

قال في آخره :

« ويتلوه في الثالث سنة ٧٢١ هـ والحمد لله رب العالمين ... ووافق الفراغ من كتابته في ٥ ربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ على يد العبد الفقير الى رحمة ربه محمد بن محمد بن علي الانصاري عرف بابن الحبوبي . [1] » اهـ

وجاء في آخر هذا الجزء :

« قوبل هذا المجلد والذي قبله مع جامعه في مجالس آخرها ثامن ربيع الآخر سنة ٧٢١ هـ بدمشق والحمد لله وحده . كتبه القاسم بن محمد البرزالي . » اهـ

ولم أعثر على باقي مجلداته الا ان صاحب اللمعات البرقية قد نقل بعض النصوص منه مما يدل على وجوده في عصره . ولعل الأيام تكشف عنها . وهذه النسخة من الأصول المهمة ؛ وتصلح لتصحيح ما جاء في التواريخ الأخرى المنقولة منها أو من الأصل واذا عدمنا بقية اجزائه فلا نحرم مختصراته لابن كثير ، وللعيني ، وابن الجزري ...

وحاجتنا في ان لا يبقى غموض او خفاء في تاريخنا . وهذه النسخة تنفي ما جاء في كشف الظنون من قوله انه لم يبيض . ويجوز ان يكون في حالة المسودة ما جاء بعد هذين المجلدين .

٣ - الصلات التاريخية :

ان مؤرخين عديدين كانت لهم الصلة المتينة بتاريخه ، وشمس الدين ابن الجزري من اقدمهم كان ينقل منه ، وقد مرّ الكلام عليه [2] . ومن اكثر من لهم صلة به الذهبي وابن كثير وابن رافع السلامي ، ومثله العيني وابن حجر ... وتاريخنا العلمي والأدبي أصابته جفوة ولحقه إهمال مدة ، فلم يكن متصلاً بنا اتصالاً

(١) وهذا الرجل رأيت تاريخاً في خزانة المتحف باستانبول سمي [تاريخ الكرد] لم يعرف اسم مؤلفه ، وجدت اسمه عليه باعتباره مالكاً له . ومن هنا يعلم أنه من تواريخ الشام ، وتهم معرفته لأيام الايرانيين وحوادث الخلافة العباسية لأيامها الاخيرة وفي الدرر الكامنة نعته بسبط ابن الحبوبي وتوفي في رمضان سنة ٧٢٢ هـ ولا شك انه توفي بعد أن كتب هذا التاريخ بمدة قليلة وترجمته في الدرر ج ٤ ص ١٩٠ . (٢) المجمع العلمي ج ١٩ ص ٥٤٦ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وثيقاً ، فالأيام لا تزال تبدي غير ما عرف بالأمس . تجلت فيه الرغبات ، ووافقت مختلف الأذواق والنفسيات فلا نجد تاريخاً لا ينال حظاً من الإلتفات ، أو لا يؤدي غرضاً من أغراض التاريخ في مادته أو في أسلوبه ومنهجه ... مما جعل العلاقة مكينة .

ويطول بنا تعداد درجات تلك العلاقات بتاريخ البرزالي من مؤرخين عديدين وإنما أذكر تاريخ ابن كثير ، اذ مرت مباحث فيه ... فهذا التاريخ لخص تاريخ أبي شامة اعني [ذيل الروضتين] . وانتقى [تاريخ البرزالي] ثم جعله عاماً ، فضم اليه الملخصين بعد ان حذف منهما ما وجده واجب الحذف مما دعا أن يوجه عليه النقد ، ويندد به المؤرخون من جراء انه أخل برجال كثيرين .

وما جاء في دائرة المعارف الاسلامية ، وفي فهرس خزانة برلين قسم التاريخ عن كتاب [المنتخب من تاريخ البرزالي] . فهو لابن كثير قطعاً اختصره ابن كثير من البرزالي وضمه الى تاريخه [البداية والنهاية] .

قال في آخره :

« وهذا آخر ما أرّخ شيخنا الحافظ علم الدين البرزالي في كتابه الذي ذيل به على تاريخ الشيخ شهاب الدين ابي شامة المقدسي . وكانت وفاة البرزالي في العام القابل وهو محرم (١) بمنزلة خليص رحمه الله . وقد ذيلت على تاريخه الى زماننا هذا . وكان فرغي من الانتقاء من تاريخه في يوم الأربعاء العشرين من جمادى الآخرة من سنة ٧٥١ هـ أحسن الله خاتمتها آمين الى هنا انتهى ما كتبته من لدن خلق آدم الى زماننا هذا . ولله الحمد والمنة . كتبه اسماعيل ابن كثير ابن ضوء القرشي الشافعي عفا الله عنه وكتبه لنفسه افقر عباد الله وأحوجهم الى رحمة ربه محبّ أهل السنة وخادمهم محمد ابن سلطان ابن سعيد البعلي الحنبلي عفا الله عنه بمنه وكرمه » اهـ (٢)

(١) في مجلة العالم الاسلامي جاء التصحيح بـ (المحرم) للدلالة على الشهر الأول من شهور السنة العربية في حين أن المراد هو إحرامه في الحج من أحرم يحرم فاقتضى التنبيه .

(٢) فهرس خزانة برلين ج ٩ ص ٥٩ ورقم ٩٦٤٩ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

وهذه النسخة منقولة عيناً من نسخته ، واعتقد انه لم يبق ريب في أن ابن كثير لخصه ، وأضاف اليه ملخص تاريخ ابي شامة ، وما اعتمده من تواريخ أخرى من لدن خلق آدم ، وذيل عليه الى زمانه ، فكان المجموع [تاريخ ابن كثير] ، وان تداول الملخصات لا يمنع ان يكون قد جمعها في التاريخ وان كاتب چلبي بيّن انه انتهى بتاريخه الى آخر سنة ٧٣٨ هـ وهو آخر ماخصه من تاريخ البرزالي وكتب حوادث الى قبيل وفاته بسنتين .

ولا نتوغل في البيان عن ابن حجي الحسباني الدمشقي ، وابن قاضي شهبة ولا عن الآخرين ممن لهم علاقة بابن كثير والتذييل عليه ، فموضوع بحثنا البرزالي فقد عرفنا علاقته ، وعلمنا سلسلة الاتصال التاريخي ، فلا يخلو مؤرخ معاصر ، أو تالٍ لعصره من التأثر بتاريخه . فهو العمدة في الوثوق والصدق . والعناية في الأخبار فاذا كانت ملخصاته اليوم غذاءنا التاريخي ، فلا ريب أننا في ضرورة ملحة للاطلاع على الأصل ، والأخذ منه رأساً ، فلا نعوّل على من جعله رأس ماله ، فنقف عند اختياره واختصاره .

وأما التاريخ المسمى [تاريخ المائة السابعة وما بعدها] فقد جاء أنه اختصره القاسم بن محمد بن يوسف بن محمد البرزالي وكان قد بدأ بسنة ٦٠ هـ قال : فيها توفي احمد بن سالم من صلحاء الحنابلة مات بزرع ، واحمد بن سلمان الحربي الملقب بالسكر ، والياس بن جامع الخ [1] وقال في آخره :

« ويتلوه سنة ٧٣٧ هـ . كتب سنة ٩٥٠ هـ . » اهـ ، وهذا لم يكن تاريخ ابن كثير . والظاهر انه مجهول المؤلف .

٤ – مؤلفاته الأخرى :

ليس من موضوع بحثنا ان نستقصي مؤلفاته . وقد ذكر جملة منها بروكلمن في كتابه [تاريخ آداب اللغة العربية] . وانما يهمنا منها ما كان في التاريخ ، والأمل ان يكشف التتبع عنها ، ويعيّن مواطن وجودها . والجدير بالذكر منها :

(١) خزانة كتب برلين ج ٩ ص ٥٦ ورقم ٩٤٤٨

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net

١) معجم شيوخه . في تاريخ العلماء والآخذين عنهم . وهو في مجلدات كثيرة . ونقل العلماء منه الشيء الكثير ، وأطروه . ورأينا ذكره مكرراً في [منتخب المختار في علماء بغداد] . وغالب من كتب في العلماء ووفياتهم رجع اليه . وقد مرت الاشارة الى ما خرجه له المحدث شمس الدين بن سعد من مشيخة ... ومدحه الذهبي .

٢) معجم البلدان والقرى . لم نعثر على نسخة من هذا الأثر ، ولعلها شذت عن النظر ، ونرجو ان ينبه عليها من كان يعلم بوجودها . وفي أيام المؤرخ شمس الدين محمد بن علي بن احمد بن طولون المتوفى في جمادى الأولى سنة ٩٥٣ هـ — ١٥٤٦ م كانت موجودة وأخذ منها بعض النصوص [١] .

هذا ما اقتضى بيانه من التعريف بالبرزالي وتاريخه الأصلي .

وتوفي في ٤ ذي الحجة سنة ٧٣٩ هـ — ١٣٣٩ م وللمترجم زوجة عالمة فاضلة اسمها دنيا بنت حسن بن بلبان الدمشقية جاء في الدرر الكامنة أنها ولدت سنة ٦٧٨ هـ — ١٢٧٩ م . وسمعت من يوسف ابن الفسولي وغيره ، قال وسمع منها شيخنا العراقي في جمادى الآخرة سنة ٧٥٩ هـ — ١٣٥٨ م . [٢]

اكتفي بهذا . والله ولي الأمر .

(بغداد) عباس العزاوي

---

(١) القبسات البرقية في النكت التاريخية ص٣٥ من طبعة سنة ١٣٤٨ هـ في مطبعة الترقي بدمشق

(٢) الدرر الكامنة ج ٢ ص ٣٠٢ .

هدية مجمع اللغة العربية بالتعاون مع شبكة الألوكة
www.alukah.net
شبكة الألوكة www.alukah.net